

٢ - حول انهيار فرنسا

لأستاذ عربي كبير

ولنترك مسائل الدخ والإطراء والرتاء جانباً ، ولنعد إلى أصل القضية وتساءل ما ذا كانت أسباب انهيار فرنسا ، هذا الانهيار السريع الذي يكاد يكون غائياً ؟ ...

فن أبسط وأسهل الأجوبة التي تخطر على البال رداً على هذا السؤال هي أن فرنسا لم تكن مستعدة للحرب .

وفي الواقع أن هذا التعليل قد سيطر على الأذهان والأقلام ، سيطرة غريبة . فإن معظم الذين كتبوا وعالجوا هذا الموضوع عللوا الانهيار بعدم الاستعداد والبعض منهم جعلوا من « عدم الاستعداد » هذا دليلاً على حسن الطوية وتبل الغاية .

فقد قرأت بين ما قرأته من المقالات حول هذا الانهيار في المجلات المصرية ، هذا الحكم البتار :

« ما غلبوا إلا لأن الديمقراطية التي يعتقدونها لا تفكر إلا في السلم ولا تتسلح إلا بالعهود والمواثيق والقوانين والشرف ، وأن الديكتاتورية التي يعادونها لا تفكر إلا في الحرب ولا تتسلح إلا بالحديد والنار والدعاية والحياة والكذب »

أنا لا أستطيع أن أسلم بصحة هذا الرأي ، بالرغم من احترامى الشخصى لصاحبه ؛ فلنستعرض الأعمال العسكرية والسياسية التي قامت بها فرنسا منذ انتصارها في الحرب العالمية النصرمة : إنها استولت على مراكس من جهة ، وعلى الشام من جهة أخرى ، وجردت الحملات العسكرية على مختلف النواحي في أوربة وآسية ، وأفريقية : حاربت الأتراك ، حاربت العرب ، حاربت الروس بعد الهدنة ، اشتركت في احتلال قسم من البلاد الألمانية ، وأقدمت بمفردها على الاستيلاء على قسم آخر منها ؛ ساعدت دول بولندا ، وتشيكوسلوفاكيا في تسليحاتها وتنظيماتها العسكرية ، وفلتل أحاييل الحلف الكبير والحلف الصغير ، وأخذت تدر دفة السياسة الأوربية بصوت مسموع ومكانة مرموقة . . . وأتفقت مبالغ طائلة في سبيل تشييد « خط ماجينو » على طول الحدود الألمانية ،

ورسعت البلاد السورية والمراكشية بمدد كبير من الواقع العسكرية . . . فكيف يجوز والحالة هذه أن نقول إن فرنسا لم تفكر إلا في السلم ، ولم تتسلح إلا بالعهود والمواثيق ؟

المهود والمواثيق ؟ هل أحترمها فرنسا - مثلاً - في سياستها السورية ؟ ألم تكن أعمالها هناك - من أولها إلى آخرها - سلسلة حركات تتلخص في القوة والعنف دون أن تنقيد بالمواثيق والمواثيق ؟ ...

فالعامل الأصلي في الانهيار لم يكن عدم الاستعداد للحرب . وعلى من يخامره أدنى شك في هذا الباب أن يرجع بذكرته إلى أوائل الحرب الحالية . ويتذكر ما كان يسمعه وما كان يقرأه من الآراء والأخبار حول قوة فرنسا العسكرية : فكنا كنا نسفح كل يوم مقارنات طويلة عريضة ، بين خط ماجينو وخط سيجفريد ، مقارنات تنتهي بوجه عام بالدخ والإطراء على الأول والتبجح والازدراء بالثاني . . . كل يوم كنا نسمع ونقرأ أخباراً شتى كلها تؤكد تفوق اندفعية الفرنسية على اندفعية الألمانية وتبرهن على تفوق الطيران الفرنسي على الطيران الألماني . . .

ولا حاجة للبيان أن مصادر هذه الأخبار والدعايات كلها كانت فرنسية . . .

وكل شيء يدل على أن فرنسا كانت « تعتقد » أنها مستعدة للحرب أتم الاستعداد ، وأنها ستنتصر بدون ريب . وإلا لما أقدمت على إعلان الحرب ، ولأوعزت إلى بولندا بوجوب التساهل مع ألمانيا في قضية دانزيج والممر ، ولا تكبت بعد ذلك على إتمام استعداداتها ؛ غير أنها لم تفعل ذلك ، بل بالعكس شجعت بولندا على المقاومة ، وانضمت إلى بريطانيا العظمى في توزيع « الضمانات » إلى اليمن واليسار ، وعلى القريب والبعيد ، ممن يطلبها أولاً يطلبها من الدول ... فلا مجال للشك في أن فرنسا كانت مغرورة بقوتها ومخدوعة في قوة عدوتها . .

من المعلوم أن القوة من الأمور النسبية ؛ فالقوى بالنسبة إلى شيء ، قد يكون ضعيفاً بالنسبة إلى شيء آخر ، والغلط في التقدير في مثل هذه الأحوال قد ينتج من غلط في تقدير القوة نفسها ، أو في غلط في تقدير القوة المقابلة لها ، أو من غلط في كلا الأمرين . . . إن سير الوقائع يدل دلالة قطعية على أن فرنسا أخطأت خطأ فاحشاً في تقدير قوة ألمانيا . . .

وجرتهم إلى الحرب والاضطدام مع قوى تفوق قواهم تفوقاً عظيماً ... وأدت بذلك إلى انخراطهم في الانحلال المريع .

والآن ، بعد أن حدث ما حدث فظهرت الحقائق للعيان ، تبين بصورة لا تترك مجالاً للشك أن الجيش الألماني الذي هاجم الجيش الفرنسي ، كان يفوقه تفوقاً عظيماً من جميع الوجوه المادية والمعنوية . كان يفوقه تفوقاً بارزاً من حيث العدد والتجهيزات والانضباط والقيادة ... ويتميز أقصر ، من حيث الكمية والكيفية ...

من المعلوم أن ألمانيا كانت جردت من السلاح ، وحُرمت من حق التسليح بعد الحرب العالمية ، فظلت عرومة من الأسلحة ومن مصانعها مدة تزيد على عشرين سنوات ، فعندما بدأت تسليح مؤخراً - سرّاً في بادئ الأمر ، وعلناً في نهاية الأمر - لم تنفذ بشيء من القديم - بطبيعة الحال ... فاستحضرت أنواعاً جديدة من الأسلحة الحربية ، وابتكرت أنواعاً جديدة من أساليب الحرب . ويظهر أنها كانت تمكث من ابتكار أنواع عديدة ، فاستفادت من كل نوع منها في إحدى صفحات حروبها التتالية في بولندا ، وفي الرومانيا ، وفي هولندا ، وعندما جاء دور هجومها على فرنسا استطاعت مفاجأتها بوسائل وأساليب حربية أخرى ، أفندت على الجيش الفرنسي جميع الخطط التي كان قد وضعها ...

وزد على ذلك أن الجيش الألماني الذي انقض على الجيش الفرنسي يمثل هذه الوسائل الحربية الجديدة ، كان متفوقاً عليه تفوقاً كبيراً من حيث العدد أيضاً . وإذا بحثنا أسباب هذا التفوق العددي نستطيع أن نذكر أموراً كثيرة منها مساعدة الموقع الجغرافي ، وسير صفحات الحرب ، وكثرة وسائل النقل ، ونظام خطط التعبئة .. وما أشبه ذلك من العوامل والأسباب ، غير أننا - مع كل ذلك - نضطر إلى التسليم بأن السبب الأصلي يعود إلى كثرة العدد ؛ إذ من المعلوم أن عدد نفوس ألمانيا يناهز ضعف عدد نفوس فرنسا ، فلا غرابة ، والحالة هذه أن يتفوق جيشها على جيش فرنسا تفوقاً كبيراً من حيث العدد أيضاً .. وبما يجدر بالانتباه أن قضية عدد السكان كانت من القضايا التي أخذت تشغل بال الفرنسيين وكثير غماؤهم منذ مدة غير يسيرة ، فإن

فيجدر بنا أن نسأل إذاً : لماذا أخطأت فرنسا كل هذا الخطأ الفاحش في تقدير قوة عدوتها ؟

إنني أعزو سبب ذلك إلى انخداع فرنسا بأقوال اللاجئين الموترين الذين هربوا من ألمانيا أو طردوا منها ... وقد فتحت فرنسا أبوابها لهؤلاء ، وأرادت أن تستفيد منهم ومن شكواهم ودعائهم في إثارة الرأي العام العالمي ضد ألمانيا واستائته نحو فرنسا ... في حين أن القسم الأعظم من هؤلاء اللاجئين كانوا من الطفيليين الموترين الذين لا يرتبطون بأى وطن من الأوطان المتيدة ارتباطاً قليلاً ، ولذلك أخذوا يصورون ألمانيا على غير حقيقتها ؛ صوروا النظام الجديد الذي قام في ألمانيا بصورة مجموعة من التعسف البربري تقوم به جماعة من الطغاة فيكرهها جميع الناس . قالوا إن كل الناس ينفرون من النازية نفوراً شديداً ويستعدون للثورة عليها استعداداً كبيراً . كلنا سمعنا انعكاسات هذه الأقوال والدعيات . ألمانيا على أبواب ثورة داخلية ستندلع نيرانها قريباً فتجرف المحتلة جرفاً عنيفاً ... كل شيء ردىء هناك ، حتى المعادن التي تصنع منها الأسلحة ، حتى الأنتم الذي يستعمل في بناء الحصون لم يكن من الأنواع الجيدة ...

لقد فتح الفرنسيون أبواب بلادهم لمئات الألوف من هؤلاء الموترين على مصراعها ، كما فتحو آذانهم لجماع دعاويهم ودعائهم ، وصاروا يصدقون كل ما يقولونه ، ولا سيما أن ما يقوله هؤلاء كان موافقاً لما يتمناه الفرنسيون كل التمني ... وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن ذلك كان من أهم الأسباب التي أدت إلى انخداع فرنسا في تقدير قوة عدوتها ، وأدت بها إلى الانكسار الفظيع ...

فقد أفادت الجرائد كثيراً في ذكر أعمال الذين سماهم باسم « الطابور الخامس » وبحثت كثيراً عن الدور الذي لعبته الجماعات التي كانت تقوم بدعائيات متسترة - على حساب ألمانيا - ويهيئون بذلك الجو النفسى اللائم لعمل الجيوش الجرارة غير أنني أقول : إن عمل أرتال اللاجئين في فرنسا لم يكن أقل تأثيراً من عمل الطواير الخامسة في النتيجة النهائية . فإن أرتال اللاجئين الموترين أضروا فرنسا من حيث كانوا يريدون خدمتها ؛ وخدموا ألمانيا من حيث كانوا يعتقدون إضرارها ... لأن دعائهم خدعت الفرنسيين خدعة قوية في قوة ألمانيا ،

التفوق على أعدائها من جهة النفوس أيضاً
غير أنه مما لا مجال للشك فيه أن الجيوش التي تجمع من
أهالي المستعمرات — وتساق إلى ساحات الحروب سوقاً ومحمل
على رخوض غمار الحرب — دون أن تشعر بدافع باطنى يجلب
إليها الاستقلال ، أن مثل هذه الجيوش لا يمكن أن تتكافأ والجيوش
الوطنية التي تعمل ومحارب بشعور وطنى وإيمان قومى ...

وأما الاتفاقات السياسية — فقاما تستقر على حال ؛ فلا
تستطيع أن تضمن المستقبل في جميع الأحوال ، لأن منافع الدول
والأمم معضلة أعضاء شديداً ، ومتشابكة تشابكاً كبيراً . فإذا
رأت دولة ما أن من مصلحتها أن تتفق مع دولة أخرى في بعض
الظروف ، فقد ترى من مصلحتها أن تلتزم الحياد ، أو تتفق مع
غيرها عند تبدل الظروف . إن نظرة بسيطة إلى قلب الاتفاقات
السياسية وتطور التكتلات الدولية تكفي لإظهار ذلك للعيان ...
هذه إيطاليا ، فقد انضمت إلى فرنسا وإنجلترا ، ضد روسية
في حرب القرم ، ثم اتفقت مع ألمانيا ضد فرنسا بعد استيلاء
الأخيرة على تونس ؛ ومع هذا لقد انضمت إلى أعداء ألمانيا
خلال الحرب العالمية ، وفي الأخير عادت واتفقت مع ألمانيا ضد
أعدائها في الحرب الحالية ...

وهذه إنجلترا ، فقد حاربت فرنسا في عهد نابليون ، ثم اتفقت
معهما ضد روسيا في حرب القرم ، ثم اتفقت مع اليابان فشجعتها
على محاربة الروس بعكس ما عملته فرنسا عندئذ ، ثم اتفقت مع
فرنسا وروسية ضد ألمانيا في الحرب العالمية ، ثم حاربت روسيا بعد
انتهاء الحرب المذكورة ، وفي الأخير بذلت الجهود الجبارة بالاتفاق
معهما قبيل الحرب الحالية . وكذلك الأمر في علاقات إنجلترا
مع تركيا فإنها كانت على الدوام يوماً لها ويوماً عليها ...

ونحن نستطيع أن نذكر عشرات الأمثلة لذلك ... مما يدل
على أن مثل هذه الاتفاقات لا توجد موازنات مستقرة — بين
تطور المنافع وتقلب الاتجاهات ...

ولذلك كله سارت الأمور خلال الحرب الحالية سيراً
غريباً — بالرغم من الاتفاقات والضمانات السابقة — وقد أدى
هذا السير إلى بقاء الجيش الفرنسى — في آخر الأمر — وحيداً
إزاء الجيش الألماني في ساحات الحرب ... فازداد بذلك تأثير
التفوق المزدى زيادة هائلة ... (من)

الاحصاءات الموجودة تدل على أن نفوس فرنسا كانت مساوية
لنفوس ألمانيا سنة ١٨٦٥ غير أنها لم ترد بعد ذلك خلال سبعين
سنة — أى حتى سنة ١٩٣٥ — إلا ثلاثة ملايين ، في حين أن
نفوس ألمانيا — زادت — خلال المدة نفسها — أكثر من
ثلاثين مليوناً ...

لا شك في أن قضية النفوس وحدها لا تكون من القضايا
الحاسمة في سير التاريخ ؛ فإن التاريخ يرينا أمثلة كثيرة من تغلب
الأمم الصغيرة على بعض الأمم الكبيرة ، بالرغم من قلة عدد نفوسها ،
غير أن مثل هذه الحوادث لا تحدث عادة إلا عندما يكون هناك فرق
عظيم بين الأمتين ، من حيث مستوى الحضارة والثقافة ، وشدة
الروابط الاجتماعية وقوة الإيمان القومى ... وأما إذا كانت الأمتان
متقاربتين من هذه الوجوه الثقافية والاجتماعية — كما هي الحالة
في فرنسا وألمانيا الآن — فمن الطبيعي أن تكتسب قضية النفوس
خطورة خاصة ، وتؤثر في سير التاريخ تأثيراً كبيراً .

فقد انتبه عدد غير قليل من الكتاب والمفكرين في فرنسا إلى
الخطر الذى أخذ يحدق ببلادهم من جراء نقص عددها ؛ حتى إنه ظهر
بينهم من قال : يجب أن نعلم بأننا في كل سنة من السنين التي تمر
علينا على هذا النوال نخسر معركة ونفقد جيشاً دون أن نقدم على
حرب ودون أن نشعر بهذه الخسارة ، في حين أن ألمانيا — بعكسنا —
تربح في كل سنة معركة وتحصل في كل سنة على جيش جديد ،
دون أن تقدم على حرب ودون أن تضحي شيئاً في سبيل ذلك ...
إلا أن الأمور ظلت على حالتها هذه بل زادت خطورة من
خبراء التدابير المتخذة في ألمانيا في هذا السيل — لقد وضعت
ألمانيا عدة قوانين واتخذت عدة تدابير لضمان تكاثر النفوس — زيادة
على سيره المعتاد — في حين أن فرنسا لم تخرج عن ساحة النقد
والبحث في هذا المضمار ، ولم تقدم على وضع قانون يعالج هذه
القضية الحيوية بعض العلاج إلا قبل اندلاع نيران الحرب الحالية
كان يأمل رجال السياسة في فرنسا التغلب على المشاكل
والمخاطر التي تنجم عن مسألة النفوس بوسيلتين غير مباشرتين .
الأولى — التجنيد من المستعمرات ، وتقوية الجيش الوطنى
بجيش المستعمرات .

الثانية — تكوين اتفاقات سياسية وعسكرية تربط فرنسا بكتل
كبيرة قوية ، تكوني للملافة نقص النفوس الأصلى ، بل تضمن